

سابقاً في بحر أفكارهم كان.. يفوص فيها ويجول.. يمسك بعض أفكارهم في يده ذات الأظفار الطويلة.. وينظر إليها من وراء قناعه الأبيض المخيف.. ويبتسم.. ويطمئن.. كنت تراه عن بعد فلا تدري من هو.. وكيف يسبح في بحر أفكارهم هكذا.. ثم لم تلبث أن عرفت.. كان هذا هو الشيطان المريد اليهودي "ماستيم".. كان يسبح في بحر أفكار مذهب مسيحي جديد.. مذهب ظهر في أوروبا فجأة بعد أن طُرد اليهود منها.. كان "ماستيم" يسبح في بحر أفكار أصحاب المذهب البروتستانتية.

"اليهود هم أبناء الله وخاصته والمسيحيون هم الغرباء.. والغرباء لابد أن يرضوا أن يكونوا كالكلاب التي تأكل الفتات الذي يسقط من مائدة الأسياد"

مارتن لوثر

وجد هذه الفكرة في بحر أفكارهم تتهاذى.. فكرة لفتت انتباه الشيطان اليهودي.. فكرة قالها مارتن لوثر "مبتدع المذهب البروتستانتية كله.. الرجل القسيس الذي كره سلطة البابا شبه الإلهية.. كره بيع صكوك الغفران التي تضمن للناس حفظاً من النار وفداً في الجنة.. كره عدة أمور أخرى وعارضها بعنيفة وحماسة شديدة.. وفي مذهبه هذا كان يتقرب لليهود ويعارض اضطهادهم وطردهم من البلاد ومعاملتهم على أنهم المذنبون الأبديون قاتلو المسيح.

"دعكم من الإنجيل لأنه محرّف.. إن الكتاب الصحيح الوحيد هو التوراة اليهودية ولا شيء غيرها.. وبالنسبة للتلمود فلا يجب علينا أن نحرقه بكل هذه القسوة"

مارتن لوثر

فكرة أخرى أمسكها بيده وصار ينظر إليها بتمعن.. فكرة وضعت التوراة اليهودية مكان الإنجيل في هذا المذهب المسيحي الجديد.. اتهمه المسيحيون

التقليديون الكاثوليك بأنه يهودي متخفّف.. بعد فترة تغيرت أفكار هذا الرجل لتنتج شيئاً غريباً نوعاً ما.

"اليهود كائنات يجب التخلص منها فوراً.. ديدان مقرّزة وخبثاء وملعونون إلى الأبد.. يجب أن نسلب منهم جميع كتبهم ونحرقها.. لا بد أن نطردهم جميعاً من بلادنا"

مارتن لوثر

نظر "ماستيم إلى الفكرة بتعجب.. ألم يكن الرجل منذ قليل محبّاً لليهود متقرّباً إليهم ؟.. وبينما "ماستيم" يفكر إذا ناداه الأفعى "سيرينت" نداء فهم منه أنه رغم أن أفكار هذا الرجل أصبحت معارضة لليهود إلا أنها كانت صهيونية في نفس الوقت.. بدأ "ماستيم" يسبح باحثاً عن تلك الأفكار الصهيونية في بحر العقلية البروتستانتية.. حتى وجدها مكتوبة بخط أحمر مشع وسط كل الأفكار الأخرى.

"علينا ألا نعيق ذهاب اليهود إلى فلسطين.. بل إن علينا أن نعطيهم كل ما يحتاجون إليه في رحلتهم تلك.. لأنه لما يقدر اليهود أن يقيموا لأنفسهم دولة في فلسطين سينزل المسيح عيسى ليخلص العالم من الشر"

مارتن لوثر

إن هذا الفكر هو الولادة الحقيقية للصهيونية.. فقد خرج قبل أن يؤلّد "هرتزل".. بل حتى قبل أن يولد "ساباتاي زيفي".. ترك "ماستيم" أفكار "مارتن لوثر" وبحث عن أفكار لمصلح بروتستانت آخر جاء بعده ويدعى "كالفن"

"الربا ليس حراماً بل هو حلال لا شيء فيه"

كالفن

هذه الفكرة ساهمت في تسهيل جميع معاملات اليهود المالية وسيطرتهم الاقتصادية على جميع البلاد الأوروبية.. كان "كالفن" هذا يدعو بحماس لأفكار "مارتن لوتر".. وأفكاره تلك فرقت بين الكنيسة والشعب في إنجلترا مما أدى لاشتعال النار في الثورة الإنجليزية التي شاهدها على الشاشة مع "سيربنت" من قبل.

ترك الشيطان "ماستيم" بحر الأفكار البروتستانتية وطار خارجاً منه إلى سماء أوروبا التي شهدت حروباً دينية بين أتباع المذهب البروتستانتى وأتباع المذهب القديم الكاثوليكي.. حروب دينية راح ضحيتها الكثير.. وانقسمت بلاد أوروبا دينياً فصار منها ما هو كاثوليكي بحت مثل فرنسا وإيطاليا وإسبانيا.. ومنها ما هو بروتستانتى مثل ألمانيا وإنجلترا.

نظر "ماستيم" خلال هذه الحرب إلى البروتستانت وهم يهاجرون من إنجلترا عبر المحيط إلى أمريكا.. وظنوا أنفسهم في هجرتهم هذه كأنهم يعيدون مشهد الخروج المقدس.. أيام خرج اليهود من مصر بعد أن استعبدتهم فرعون.. فشق بهم موسى البحر وأوصلهم إلى أرض صحراء هي أرض سيناء أو أرض التيه.. أما البروتستانت فقد هربوا من اضطهادهم في أوروبا إلى أرض تيه جديدة هي أرض أمريكا.. وقد أعجبهم تلك الأرض وصاروا أغلبية ساحقة فيها وبالتالي صار المذهب البروتستانتى هو المذهب الغالب في أمريكا.

لم يكن "ماستيم" يفهم ما الذي يعنيه ذلك وقتها.. كل ما أصبح يعلمه هو أن البروتستانت هؤلاء قد صاروا أغلبية في العالم.. وأنهم موالون ومعيّنون ومناصرون لعودة اليهود إلى فلسطين.. وأكبر الدول المناصرة ستكون بالتالي هي إنجلترا وأمريكا.. لم يكن يدرك جيداً ما الذي يعنيه هذا وهو يطير فوق المسجد الأقصى.. لكن الزمن كان كفيلاً بإفهامه.. كان اليهود الآن قد بدأوا يهاجرون إلى فلسطين ألفاً وراء ألف بعد أن حكمت جمعية الاتحاد والترقي عرش الدولة العثمانية.. وهاهو "سيربنت" يزحف على بلاط مسجد قبة الصخرة

في هدوء ولسانه المشقوق يخرج من بين أنيابه مهتزاً في نهم لشيء ما.. كان يبدو أن الأفعى "سيربنت" قد وصل لمحطته الأخيرة.. وأنه سينجزها بنجاح كما أنجز كل المراحل التي سبقتها.

بعد وفاة "هرتزل" أصبح "ماستيم" يطير فوق رجل آخر.. خليفة "هرتزل" في زعامة الصهيونية.. "حاييم وايزمان".. عالم كيميائي يهودي.. أوفده اللورد "روتشيلد" ليزور فلسطين أثناء هجرة اليهود إليها.. فعل هذا الرجل أفاعيل خبيثة أعجبت "ماستيم" جداً.. في البداية أسس شركة تطوير أراضي في يافا.. هدقها شراء الأراضي من الفلسطينيين بطريقة منظمة.. كانت أكبر صفقة عقدها هي شراء أرض واسعة جداً جداً كانت مملوكة لعائلة لبنانية مقيمة في أوروبا.. وبدأ "وايزمان" بيني مستعمرات يهودية على الأراضي التي نجح في شرائها.. ثم أنشأ جماعة مسلحة تدعي حرس الهاشومير.. يهود مسلحين لهم هيئة غريبة نوعاً ما.. يرتدون الفترة البيضاء العربية على رؤوسهم.. وعلى صدورهم حزامان سوداوان متقاطعان.. كان هؤلاء الحرس يحرسون المستعمرات اليهودية.. وبدأ "وايزمان" في إخراج مظاهرات في فلسطين للاعتراف باللغة العبرية.. وبينما "ماستيم" يطير في شوارع فلسطين.. إذ به يرى جريدة مفتوحة ملقاة على جانب الطريق.. نظر إليها.. كان اسمها الكرامل.. وكان المانشيت الرئيسي في الصفحة تحذير لجميع العرب من قيام الدولة اليهودية.. لأنها ستكون خنجرًا سامًا في خصرة العرب.. ابتسم "ماستيم" ابتسامة باهتة ثم غادر المكان طائرًا إلى مكان آخر.

فجأة اهتزت أجواء العالم أجمع.. الحرب العالمية الأولى.. تحالفت بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا ضد دولة واحدة هي ألمانيا.. لم تكن الدولة العثمانية لها أي علاقة بتلك الحرب الأوروبية من قريب أو من بعيد لكن جماعة الاتحاد والترقي أقنعوا الخليفة الصوري أن يدخل في الحرب إلى جانب ألمانيا.. وبالفعل هذا ما حدث.. واشتد اهتزاز الأجواء واشتد تطاير عباءة "ماستيم" وهو ينظر إلى

خسائر الدولة العثمانية المتتالية في تلك الحرب.. سقطت من بين أيدي المسلمين دول كثيرة مثل البلقان وصربيا وبلغاريا واليونان والجبل الأسود والقوقاز.. ولم تعد أي دولة عربية موالية للدولة العثمانية حقيقة وإنما صرخت بين العرب أصوات تنادي بالاستقلال عن ذلك الكيان التركي المغرور الضعيف.. لم تكن الدولة العثمانية بخير.. لم تكن بخير أبداً.

كان حقاً على "ماستيم" أن يقهقه ساخراً وهو يشاهد أخيراً قيام ما أطلق عليه لقب الثورة العربية الكبرى.. لم تتطوّل في أي وقت.. بل اشتعلت في خضم انشغال الدولة العثمانية بالحرب العالمية الأولى.. كان "ماستيم" متحمساً جداً.. طار إلى قلب الحدث مباشرة.. كان ملك الحجاز وشريف مكة الذي يدعى "الشريف حسين" يرسل السفير البريطاني في مصر والذي يدعى "مكماهون".. كان البريطاني يريد من العرب أن يدخلوا في الحرب العالمية الأولى مع بريطانيا ضد الدولة العثمانية.. على وعدٍ من بريطانيا أن تعترف بدولة عربية كبيرة تضم الجزيرة العربية كاملة والشام والعراق.. ويكون "الشريف حسين" هو الخليفة الأعظم لهذه الدولة.. شرط ألا تضم تلك الدولة لبنان ولا تضم فلسطين.. ووافق الشريف "حسين" واشتعلت النار.

وبينما كانت الدولة العثمانية تقاتل الروس والإنجليز والفرنسيين والإيطاليين من جميع الجهات.. إذ أتاها خنجر طعننها في ظهرها طعنة نجلاء.. خنجر عربي مكتوب على نصله "الشريف حسين".. وصفق "ماستيم" بيديه المخيفتين لهذه الطعنة الرائعة.

ترك "ماستيم" أجواء الثورة العربية الكبرى إلى أجواء أخرى.. اجتماع سري بين إنجلترا وفرنسا.. اتفاقية ذات اسم شهير "سايكس بيكو".. يرأسها من الجانب الإنجليزي "سايكس" مندوب بريطانيا لشؤون الشرق الأدنى ومن الجانب الفرنسي "بيكو" قنصل فرنسا السابق في بيروت.. اتفقا على أن تتوزع الكعكة العثمانية عليهما.. أعني تتوزع الدول العربية عليهما بعد سقوط الدولة العثمانية.. فتأخذ

بريطانيا العراق والأردن.. وتأخذ فرنسا سوريا ولبنان أما فلسطين فتبقى تحت سيطرة مشتركة للحلفاء.. ووبهذا كانت بريطانيا وفرنسا يريدان أن يأكلا قطع الكعكة العثمانية.. رغم أنهما وعدا أن يُعطيّا تلك القطع "للشريف حسين".. لكن "ماستيم" كان يتساءل عن حظ اليهود في تلك الكعكة اللذيذة.. كان يتساءل عن فلسطين.

فجأة فتح "الشريف حسين" جريدة الصباح ليجد أخبار تلك الاتفاقية السرية بين بريطانيا وفرنسا.. رغم أنها سرية إلا أن الروس سرّبوا أخبارها إلى الجرائد.. وضّح ملك الحجاز وأرغى وأزبد.. لكن حديثاً واحداً من البريطانيين طمأنه.. قالوا له ألا يصدق كلام الجرائد لأنه كلام جرائد.. ولم تحدث أي اتفاقيات ونحن على وعدنا الأول واتفاقيتنا.. فاطمأن لذلك واستراح ونام يحلم بأن يكون ملك العرب.

كان "ماستيم" يطير مطمئناً على أحوال اليهود في فلسطين.. كانوا لا يزالون يشترون الأراضي ويبنون المستعمرات.. أخيراً أيها اليهود بدأنتم تمتلكون جزءاً من فلسطين.. بعد أن شردكم الزمان وأذلكم أهل المكان.. سمع "ماستيم" أصداء حفل يقام في بريطانيا.. حفل عظيم.. طار في ثوانٍ إلى الحفل.. كان اليهود يحتفلون.. بماذا تراهم يحتفلون.. إنه يرى أكبر حكماء صهيون هنا.. "حاييم وايزمان" و"سايكس" واللورد "روتشيلد" وغيرهم الكثير.. كانوا يحتفلون بحدثٍ جَلٍ.. فقبل أيام أصدرت بريطانيا وعداً.. وعداً لليهود بأن تقيم لهم دولة مستقلة في فلسطين.. وعداً يدعى "بلفور".. والتقت كؤوس الخمر وأكف اليهود وابتساماتهم.. وظللت عليهم عباءة "ماستيم" المتطايرة وقناعه الذي تحول في تلك اللحظة إلى مزيج عجيب من السعادة والإرعاب.

لم يكن وعداً رسمياً.. إنما كان رسالة من وزير الخارجية البريطاني "بلفور" إلى اللورد "روتشيلد".. رسالة كان "ماستيم" يتوق شوقاً لقراءة نصّها.. فطار إلى حيث الرسالة الرسمية وفتحها يقرأها بتركيز.. كانت كالتالي..

وزارة الخارجية

في الثاني من نوفمبر / تشرين الثاني سنة 1917

عزيزي اللورد روتشيلد

يسرني جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة ملك بريطانيا التصريح التالي.. والذي ينطوي على العطف على أمانى اليهود والصهيونية.. وقد عُرض على الوزارة وأقرته :

"إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى إقامة مقام قومي في فلسطين للشعب اليهودي.. وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية.. على أن يفهم جلياً بأنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يبتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين.. ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد آخر.."
وسأكون ممتناً إذا ما أحاطتم الاتحاد الصهيوني علماً بهذا التصريح.

المُخلص

آرثر جيمس بلفور

أن تعطي أرضاً لا تملكها إلى شعب لا يستحقها.. كان هذا هو الوعد باختصار.. بعد أسابيع فتح "ماستيم" رسالة أخرى سرية.. مقدمة من أول صهيوني يصل لمنصب وزير في بريطانيا يرسلها إلى مجلس الوزراء البريطاني..

"الوقت الحاضر ليس مناسباً لإنشاء دولة يهودية مستقلة.. لذا يجب أن توضع فلسطين بعد الحرب مباشرة تحت السيطرة البريطانية.. لتعطي تسهيلات للمنظمات اليهودية لشراء الأراضي وإقامة المستعمرات وتنظيم الهجرة. وعلياً أن نزرع بين المحمديين ثلاثة إلى أربعة ملايين يهودي أوروبي"

كانت رسالة حكيمة.. وقد تم تنفيذها بحذافيرها.. طلبت بريطانيا من فرنسا تعديل اتفاقية "سايكس بيكو".. وأن تعطي فلسطين لبريطانيا بدلا من أن تكون

تحت سيطرة دولية.. وتم التعديل.. وبدأت بريطانيا تعد جنودها لاحتلال فلسطين عسكرياً.. كان الجيش العثماني في فلسطين قوامه حوالي مئة ألف رجل يرأسه رجل من جماعة الاتحاد والترقي.. رجل يدعى "مصطفى كمال أتاتورك".. وقد جاءه الأوامر من قيادة الاتحاد والترقي بأن ينسحب مع كل جنوده من فلسطين ويخليها تماماً.. وهذا ما فعل "أتاتورك".. انسحب بمئة ألف رجل من فلسطين.. وهاهو "ماستيم" يخلق في الهواء ناظرًا إلى مشهد لم يره منذ سبعة قرون.

جيش بريطاني لا تدرك نهايته بعينك البشرية.. كأنه حزام طويل من الجنود يمتد من الأفق إلى أرض فلسطين.. قائد هذا الحزام من البشر كان يدعى الجنرال "ألينبى".. ومن ضمن هذا الجيش كان هناك فيلق يهودي مدرّب على أعلى مستوى.. بينه وجوه خبيثة لم يتعرف عليها "ماستيم" في البداية لكن التاريخ يحفظ أسماءهم جيدًا.. كان من ضمن الوجوه في الفيلق اليهودي رجلٌ غزا الصلح رأسه من المنتصف فترك جزيرتين من الشعر على الجانبين.. رجل يعرفه التاريخ باسم "دافيد بن غوريون".. ورجل آخر هو "نحميا رايبن".. والد "إسحق رايبن".. وآخرون ممن سيكون لهم شأن فيما بعد.. كان الجنرال "ألينبى" يدخل مزهواً وسط أهالي فلسطين الذين لا يدرون أين ذهب جيش الدولة العثمانية بالضبط.. لكنهم كانوا سعداء بالبريطانيين مرحبين بهم.. فبالنسبة لهم كان البريطانيون هم الملائكة الذين أتوا من بلادهم ليساعدوا فلسطين على الاستقلال عن الدولة العثمانية التركية المغرورة.. لم تكن هذه فكرة عامة الشعب فقط.. وإنما كانت فكرة الشيوخ والمفكرين وحتى المفتي العام لفلسطين.. سمع "ماستيم" الجنرال "ألينبى" وهو ينظر إلى تلك الأجواء قائلاً:

- اليوم انتهت الحروب الصليبية .

لم يكن الشيطان الأفعى "سيربنت" موجوداً.. لقد ترك فلسطين فجأة واتجه إلى روسيا.. كانت الحكومة القيصريّة الروسية تضطهد اليهود اضطهاداً شديداً..

وذات مرة ذهب مندوب يهودي إلى وزير المالية الروسي وعرض عليه أن يتخلص من كل اليهود الذين في بلاده بإرسالهم إلى فلسطين.. حينها قال له الروسي :

- إنني أفضل أن أتخلص من اليهود فعلاً.. ولكن ليس بإرسالهم إلى فلسطين.. وإنما بإغراقهم في البحر الأسود.

كان لابد من تهجير ذلك العدد الضخم من اليهود في روسيا إلى فلسطين بأي طريقة من الطرق.. فدار "سيرينت" في أنحاء روسيا حتى أقام ثورة رهيبية.. ثورة لو أردنا سرد وقائعها لاحتجنا إلى كتاب منفصل.. خبث ودهاء أوصل اليهود إلى حكم روسيا بعد أن كانوا مضطهدين.. خبث لم تعرفه الأرض إلا في أماكن زحف الأفعى اليهودية "سيرينت".. قامت الثورة الروسية وحكمت الشيوعية روسيا.. وكانت الحكومة الجديدة أغلبها يهود.. وأول قرار اتخذه هو إرسال اليهود إلى أرض الميعاد.. إلى فلسطين.

ضج الشريف حسين وأرغى وأزبد.. ولكن بريطانيا حدثته وهدأته ونومته على سريريه الوثير.. فأعطت لابنه حُكم العراق.. وأعطت لابنه الآخر حُكم الأردن.. بدأ "ماستيم" يراقب حياة اليهود في فلسطين بعد احتلال بريطانيا.. أصبحت اللغة العبرية لغة رسمية.. أصبح لهم محطات كهرباء مخصصة لهم.. أصبحت لهم وزارة للمياه ووزارة للأشغال.. ودخل الاقتصاديون اليهود ولعبوا الأعيهم وفتحوا شركاتهم وأصبحوا يشغلون الفلسطينيين فيها.. ولكن بعد الهجرة الكبيرة لليهود من روسيا بدأ الأهالي يضجون ويشعرون بالخطر.. وبدأت ملامح توشي بالخطورة ترسم على قناع "ماستيم".

على الجانب الآخر تم افتعال حرب زائفة بين الدولة العثمانية واليونان وتم صناعة بطل زائف في الجرائد والمجلات. "مصطفى كمال أتاتورك".. بطل مدحه "أحمد شوقي" قائلاً..

الله أكبر كم في الفتح من عجب.. يا خالد الترك جدد خالد العرب

وسمح التمهيل والتطويل في الجرائد والمجلات لهذا البطل الزائف أن يعلن نفسه ذات يوم رئيساً لدولة تركيا.. ويعلن سقوط الخلافة العثمانية إلى الأبد.. وفور أن تسلم حكم تركيا اندهش "ماستيم" من كم الأمور العجيبة التي قام بها.. نفى كلمة إسلام تماماً من دستور تركيا.. ونص أنها دولة علمانية لا دين لها.. حرّم لبس الحجاب على النساء.. ألغى الاحتفال بالعيدين.. منع المسلمين من أداء فريضة الحج لسنوات.. أغلق عدداً ضخماً من المساجد.. حول مسجد أيا صوفيا العظيم إلى كنيسة.. منع الأذان باللغة العربية وجعله باللغة التركية.. ألغى منصب المفتي.. أعدم 150 عالماً مسلماً اعترضوا على هذه القوانين.. أجبر أئمة المساجد على ارتداء القبعة الأوروبية بدلاً من العمامة الإسلامية.. ألغى التقويم الهجري تماماً.. ساوى بين الذكر والأنثى في الميراث.. ألغى من اسمه كلمة مصطفى واكتفى بكلمة أتاتورك.. وفي النهاية أوصى عند موته ألا يُصلّى عليه.. ورغم أن هذه الأمور كلها أسعدت روح "ماستيم".. إلا أن الاندهاش لم يستطع أن يفارق قناعه لمدة طويلة لكنه زال لما أوحى إليه "سيرينت" أن أتاتورك قد ربته حاضنة يهودية.

ألف "أحمد شوقي" قصيدة طويلة ينعي فيها تركيا وينعي سقوط الخلافة ويهاجم أتاتورك قائلاً:

بكت الصلاة وتلك فتنة عابث.. بالشرع عرييد القضاء وقاح

أفدك خزعة وقال ضلالة.. وأتى بكفر في البلاد بواح

لا يمكنك أن تخدع كل الناس كل الوقت.. خرج مفتي فلسطين وكل المفكرين الذين كانوا مؤيدين للاحتلال البريطاني لفلسطين في مظاهرات حاشدة سلمية عديدة معارضين.. لكن "ماستيم" كان يطير فوق مظاهرة أخرى.. مظاهرة حاشدة قام بها اليهود عند حائط البراق للمطالبة ببناء الهيكل المزعوم.. منشدين نشيد الأمل.. أو كما يقولون "الهاتيكفا"..

طالما في القلب تكمن

نفس يهودية تتوق

ولأمام نمو الشرق

عين تنتظر إلى صهيون

أملنا لم يضع بعد

أمل عمره ألفا سنة

أن نكون أمة حرة في بلادنا

بلاد صهيون وأورشليم القدس

وبعد صلاة الجمعة التي تلت ذلك اليوم.. كان "ماستيم" طائرًا شاهدًا لحدث رهيب أمام المسجد الأقصى.. جمهرة من المسلمين تصارعت من جمهرة مماثلة من اليهود.. وتدخل الجيش البريطاني بين الجمهرتين.. وكان تدخله إطلاق النار على المسلمين العزل الذين سالت دماؤهم في ساحة المسجد الأقصى.. وتحول قناع "ماستيم" إلى منظر بشع مخيف.. وطار فوق الجميع طيرانا يؤذن بكارثة.

قامت ثورة كبيرة كانت بداية لجميع أحداث العنف التي تلتها.. ثورة البراق.. حطم الفلسطينيون ست مستعمرات يهودية تدميرًا كاملاً.. وامتدت الثورة كالسرطان إلى كافة المدن الفلسطينية بلا استثناء.. كانت الصحف العالمية كلها تعرض خبر الفلسطينيين الجزائريين الإرهابيين الذين ارتكبوا أبشع الجرائم في حق إخوانهم اليهود المسالمين.. تم اعتقال تسعمائة فلسطيني.. أعدم أهم ثلاثة منهم.. واستمرت الثورة عامًا كاملاً.. وبعدها تم تخفيف الهجرة اليهودية.. واعتبار حائط البراق ملكية إسلامية كاملة لا علاقة لليهود بها.

إن حائط البراق هذا هو ما يُدعى هذه الأيام حائط المبكى والذي يعتبر اليوم ملكية يهودية خالصة لا علاقة للمسلمين بها.. وهو الحائط الذي يحده المسجد الأقصى من الجهة الغربية.. وهو الحائط الذي ربط النبي "محمد" فيه فرسه البراق بحلقة قبل أن يدخل إلى المسجد ويصلي بالأنبياء قبل أن يُعرج به إلى السماء.. أما اليهود فيعتبرونه الحائط الوحيد المتبقى من الهيكل.. ويبكون عنده حسرة على خراب الهيكل.

كان يبدو أن الثورة قد هدأت نوعاً ما بعد أعمال القمع الرهيبة التي كان الجيش البريطاني يجيدها ويحبها ويستمتع بها.. وكان "ماستيم" يخلق فوق مكان عجيب.. مسجد من مساجد حيفا.. وكان يمكنك أن تسمع صوت الخطيب عاليًا يدوي في القلوب:

- قال ريكم العظيم.. "ألا تقاتلون قومًا نكثوا إيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة.. أتخشونهم.. فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين"

و أعاد الجملة الأخيرة ثلاث مرات.. كان صوته متهدجًا دافئًا متحمسًا حزينًا حقيقياً.. ثم قال لهم:

- يا أيها الناس، لقد علمتكم أمور دينكم حتى صار كل واحد منكم عالمًا بها.. وعلمتكم أمور وطنكم حتى وجب عليكم الجهاد.. ألا هل بلغت.. اللهم فاشهد.. فإلى الجهاد أيها المسلمون.

ضج المسجد بالبكاء والتأثر.. كان هذا هو "عز الدين القسام".. أزهرى من أهل سوريا قاد الناس في بلده سوريا ضد الاحتلال الفرنسي.. ثم سافر إلى فلسطين ليقود الناس ضد الاحتلال البريطاني.. بعد ساعة من تلك الخطبة بدأت السلطة تبحث عنه بحثها عن الإرهابيين.. لكنه في تلك اللحظة كان قد حمل بندقيته وذهب إلى الجبال.. طار "ماستيم" فوق تلك الجبال ليشهد "عز الدين القسام"

ومعه نفر من أصحابه يقاتلون الجنود الإنجليز الذين كشفوا مخبأهم في الجبال..
كان هناك رجال من الشرطة العربية يقفون في جانب الانجليز.. صاح قائدهم :

- أنت محاصر يا "عز الدين".. عليك أن تستسلم فلا قبل لك بهم.. لا قبل
لك بالإنجليز

رد عليه "عز الدين" :

- بل نحن في مقام لم تعرفه بعد.. نحن في مقام الجهاد.. ومن خرج
في هذا المقام لا يصح أن يستسلم إلا لله .

كان "ماستيم" يتابع تبادل إطلاق النار في شغف بين الجانبين في الجبال.. لكنه بدأ
يتململ.. طالّت المعركة لأكثر من ساعتين.. وفجأة غزت الجو طائرات إنجليزية..
طائرات قصفت جانب المجاهدين بقذائف إنجليزية خرجت لها أرواح المجاهدين
كلهم.. وخرجت لها روح "عز الدين القسام".. الرجل الذي أشعل لموته ثورة
أكبر من ثورة البراق.. ثورة فلسطين الكبرى.. وبدأ قناع "ماستيم" المرعب
يتشقق بطريقة عجيبة.. وتخرج من بين تشققاته أدخنة سوداء.

لم تكن ثورة فقط.. بل كانت ثورة وإضراباً.. وربما تكون تلك أشد ثورة في
تاريخ فلسطين.. ثورة قمعتها القوات الإنجليزية بكل الطرق حتى وصلت إلى
قصف المنازل وتفجيرها لاشتباها وجود ثوار فيها.. استمرت الثورة ثلاث سنوات
كاملة نفذت فيها حوالي عشرة آلاف عملية فدائية.. بمعدل تسع عمليات فدائية
في اليوم.. وأصبحت التشققات في قناع "ماستيم" تتزايد.. كان يطير فوق أحد
المساجد أثناء صلاة العيد.. وفور انتهائها وخروج الناس إذ هجمت عليهم
القوات الإنجليزية واعتقلت نفراً كثيراً منهم.. تابعهم "ماستيم" حتى انتهى
الإنجليز بهم إلى أماكن مغلقة يسمونها *Concentration Camps*..
وضعوهم بداخلها وأغلقوها عليهم لثلاثة أيام متواصلة.. كان "ماستيم"
يشاهدهم وهم يبولون على أنفسهم لعدم وجود مكان يبولون فيه.. ويتلوى

بعضهم على الأرض من الجوع والعطش.. وييكون حالهم ودلهم وقهرهم.. وملامح وجه "ماستيم" تبرز أعتى معاني الشماتة والكراهية.

شعر "ماستيم" بأن أجواء العالم كله تهتز بعنف.. تذكر اهتزازاً كهذا منذ مدة ليست بعيدة.. لكن الاهتزاز هذه المرة كان عنيفاً جداً.. الحرب العالمية الثانية.. لازال الحلفاء حلفاء.. بريطانيا وفرنسا وروسيا.. لكن انضمت لهم أمريكا هذه المرة.. المعسكر الثاني ألمانيا.. وانضمت لها اليابان.. كانت أكبر معركة في تاريخ الأرض.. معركة مات فيها 50 مليون إنسان.. ما أهم "ماستيم" في تلك الحرب هو أنه نزحت من ألمانيا وأوروبا دفعات هائلة جداً من اليهود.. دفعات توجهت كلها ناحية فلسطين.. دفعات ادعت أنها هاربة من طغيان "هتلر" الذي يقيم المذابح والمحارق لإبادة اليهود عن وجه الأرض كلها.. وتدفقت هذه الدفعات على سفن هائلة الحجم لترسو على موانئ فلسطين.. ودخل هؤلاء متوقعين أن يحظى كل واحد منهم بمسكن ومأكل ومشرب.. وإن توقعاتهم كلها كانت صحيحة.. صحيحة جداً.

قبل الحرب العالمية الثانية كانت الهيئة التي تجتمع فيها جميع الدول تدعى "عصبة الأمم".. وهي الهيئة التي أعطت إلى بريطانيا صك الانتداب لدخول فلسطين واحتلالها.. وبعد الحرب العالمية الثانية صار اسمها "الأمم المتحدة".. وقررت الأمم المتحدة حتى تحل أزمة ثورة فلسطين هذه أن تكون فلسطين تحت حكم الأمم المتحدة.. فلا هي لليهود ولا هي للعرب.. ضج اليهود وثاروا في وجه الأمم المتحدة فتراجعت عن قرارها إلى التفكير في قرار آخر.. أن تقسم فلسطين إلى دولتين.. واحدة عربية والأخرى يهودية.. وأن تعجل بعد تنفيذ هذا القرار بإخراج البريطانيين من فلسطين.

في تلك الأثناء كان اليهود لديهم فرق عسكرية كثيرة.. كان لديهم فرقة الإيرجون.. وفرقة الشتين.. وفرقة الهاجانا.. وفرقة البالماخ.. كلها فرق عسكرية مسلحة تسليحاً ثقيلاً جداً ومدربة تدريباً عالياً جداً.. ورغم أن هذه الفرق

كلها كانت تساعد البريطانيين على قمع الثورة الفلسطينية.. إلا أنها وبعد أن خرج قرار التعجيل بإخراج البريطانيين وقرار التمهيد لتقسيم فلسطين.. قررت أن تقوم بعمليات إرهابية ضد البريطانيين.. لتعجل بإخراجهم من البلاد.. وبالفعل قامت عمليات إرهابية شهيرة ضد أعضاء الجيش البريطاني.. تفجيرات واغتيالات ونسف وقتل.. حتى تم القبض على قائد فرقة الإيجون الذي يدعى "مناحم بيغن" واعتبروه إرهابياً.. ما أضحك "ماستيم" هو أن هذا الرجل نفسه الذي دخل السجن الآن باعتباره إرهابياً.. بعد مرور ثلاثين عاماً حصل الرجل على جائزة نوبل للسلام مناصفة مع الرئيس المصري "أنور السادات".

أوعزت بريطانيا إلى رئيس وزراء مصر "مصطفى النحاس" بإنشاء هيئة تدعى جامعة الدول العربية.. تضم كل الدول العربية وتعبر عن رأيها.. شرط ألا تضم فلسطين إليها.. واجتمع العرب في هيئة جامعة واحدة.. وسلخوا منهم فلسطين.. كان "ماستيم" يفكر قليلاً.. لقد ضمت تلك الجامعة سبع دول.. ست منها تحت الاحتلال الإنجليزي.. أي أنه لا فائدة حقيقية منها إلا تمرير ما تريده بريطانيا باسم العرب.. وضحك "ماستيم" مجدداً.

طار "ماستيم" ذو القناع المتشقق فجأة إلى مقر الأمم المتحدة.. كان هناك اجتماع في غاية الأهمية.. دخل "ماستيم" إلى الاجتماع والمتحدث اليهودي يقول :

- حين نتكلم عن دولة يهودية.. فليس في مخيلتنا أي دولة عنصرية أو متعصبة لدين.. بل دولة تقوم على أساس المساواة الكاملة في الحقوق لكل سكانها.. دون تمييز في الدين والعرق.. وبدون سيطرة أو إخضاع.

بعد أن كان اليهود يملكون 5 ٪ فقط من أرض فلسطين.. إلا أنهم ملكوا بعد هذا الاجتماع نصف أرض فلسطين.. كان هذا الاجتماع هو الاجتماع الذي أعلن قرار تقسيم فلسطين إلى دولتين.. النصف للعرب.. والنصف لليهود.. والقدس لا

إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.. بل هي منطقة دولية.. ويجب على كل الفلسطينيين الساكنين في القسم المعطى لليهود أن يغادروا مساكنهم فوراً إلى القسم الفلسطيني.. وقررت اللجنة خروج البريطانيين من البلاد في 15 مايو 1948.. أي بعد ستة أشهر.

وبدأ ترحيل الفلسطينيين من الأراضي المقسومة لليهود حسب القرار.. وبدأ "ماستيم" يطير فوق القرى ليتابع أحداث الترحيل.. دخلت قوات الهاجانا إلى قرية القسطل.. أهم القرى الحامية للقدس.. دخلتها وطردت منها جميع أهلها.. ولفت نظر "ماستيم" فرقة من المجاهدين الفلسطينيين الذين كانوا يبدون منظمين ومسلحين.. كانت هذه الفرقة هي جيش الجهاد المقدس.. وقد تكون هذا الجيش بعد أن اجتمع الفلسطينيون في كافة أنحاء البلاد وقرروا توحيد صفوفهم المقاومة في جيش واحد.. وكان قائد هذا الجيش رجل فلسطيني مجاهد صنديد يدعى "عبد القادر الحسيني".. وقد رآه "ماستيم" يتصدر المجاهدين الداخلين إلى القسطل.

حدث بين هذا الرجل وبين جامعة الدول العربية حوار تاريخي.. كان فيه:

- أنا ذاهب لتحرير القسطل.. وسأقتحمها وأحررها ولو كان في هذا موتي.. ونريد منكم تزويدنا بالسلاح المخزن لديكم.
- لقد عهدنا بموضوع فلسطين إلى لجنة عسكرية خاصة ستهتم بالأمر بعد خروج البريطانيين منها في 15 مايو.
- لو أنكم انتظرت حتى 15 مايو ستحتاجون إلى عشر أضعاف ما ستحتاجونه الآن.
- نحن لا ندعم العمليات الفردية.
- نحن أحق بالسلاح المخزن من تلك المزابل التي تخزنوه فيها.. إن التاريخ سيتهكم بإضاعة فلسطين وتذكروا أن التاريخ لا يرحم أحداً.. وأني سأموت في القسطل قبل أن أرى تقصيركم وتواطؤكم.

- كفاك كلامًا سخيفًا.. نحن لدينا العتاد والسلاح لكننا لن نعطيه لك..
وإنما سنتنظر 15 مايو.

رمى "عبد القادر الحسيني" في وجوههم دبارة كانت في يده وقال :

- أنتم تخونون فلسطين.. أنتم تريدون قتلنا وذبحنا.

رآه "ماستيم" يدخل إلى القسطل ومعه نفر من جنوده.. وتمت محاصرته من قبل جيش الهاجانا حصارًا شديدًا.. ووجدت في آخر اليوم جثته ملقاة بجانب أحد المنازل في القسطل.. طار "ماستيم" فوق جثته ونظر له نظرة هازئة.. وسقطت من قناع "ماستيم" قطعة من الذقن.. لتكشف وراءها ظلمة شيطانية لا تتبين معالمها جيدًا.

في فجر اليوم التالي كان "ماستيم" يطير فوق قرية مجاورة لقرية القسطل.. قرية تدعى دير ياسين.. وفجأة هجمت عليها قوات الإير جون والشتيرن من ثلاثة جهات.. في البداية استخدموا مكبرات الصوت والكشافات.. كانوا يطلبون من جميع السكان إخلاء القرية فورًا.. فوجئوا بإطلاق نار من بين مساكن القرية.. طار "ماستيم" إلى حيث مصدر الطلقات فوجد شباب القرية قد اجتمعوا وتسلحوا ووقفوا أمام مساكنهم يحملونها بأرواحهم.. لكن طلقاتهم هذه استفزت العصابات اليهودية التي تخلت عن الكشافات وتخلت عن الميكروفونات وأمسكت بالمدافع الرشاشة وهجمت على القرية في أعداد كثيرة كأنها النمل.

ارتكب اليهود في دير ياسين أبشع شيء تم ارتكابه منذ أن دخلوا إلى فلسطين أول مرة.. وكان قائدهم هو "مناحم بيجن".. تابعهم "ماستيم" الذي توسعت تشققات "قناعه الأبيض حتى كاد أن يسقط من على وجهه.. رأى "ماستيم" الجنود يطلقون أحزمة النار من مدافعهم الرشاشة فتحصد أجسادًا وراءها أجساد.. تحصد أطفالًا وتحصد نساءً.. ورأهم وهم يرمون القنابل إلى داخل

المنازل فلتجبر فلتقي حولها أشلاء عائلات كلمة كانت تختبئ وراء ذلك الدولاب أو ذاك.

رأى جنوداً يمسكون برجل وامرأته فيصفعون حتى يسقط أرضاً ويبطحون زوجته على الأرض فيقعون عليها كما تقع البهائم وطفلتها الصغيرة لا تدري أنتظر إلى أيها الذي يلفظ نفسه الأخير أم إلى أمها التي تصرخ وكأن أحدهم سوف يسمع صراخها.. سقط جزء آخر من قناع "ماستيم".. الذي كان لا يزال يتابع تلك المجزرة التي تحدث في هذه القرية في كل شعب من شعابها.. وهاهي العصابات اليهودية قد أوقفت عشرين شاباً من شباب القرية إلى جدار يضعون عليه وجوههم وأكفهم.. ثم أفرغت طلاقاتها في أجسادهم فتساقطوا متكومين على بعضهم البعض.. وهاهم يحاصرون قرآن القرية الذي كان قبل الفجر قد أشعل الفرن مجهزاً للخبز.. ولما دخلوا القرية بعد الفجر حاصروه في فرنه.. ثم أمسكوا به وألقوا به إلى داخل فرنه ليحترق بالداخل حيّاً.. وهنا سقط قناع "ماستيم" وانكشفت الظلمة التي تختبئ وراءه.

لم يعد هناك قناع.. كانت رأسه جمجمة شيطانية ذات نظرة ساخرة تميز الجماجم الشيطانية.. وعلى جبينه محفورة نجمة داوود.. وعباءته لازالت تتطاير.. وأصبح له صوت شيطاني صارخ يشبه أكثر ما يشبه أصوات صراخ الديناصورات الكبيرة.. ثم طار إلى مشهد آخر.. رأى فيه مجموعة من اليهود يمسكون بمجموعة من النساء والأطفال فيلقونهم في أحد آبار القرية ويلقون عليهم وقوداً ويشعلون فيه ناراً فتشرب النار من فوهة البئر وتلقي بشررها حوله حتى يتراجع الجميع واضعين أذرعهم على وجوههم.. ويبدو "ماستيم" من وراء النار.. شيطان يهودي كما يجب أن تكون الشياطين.

وانتهت مذبحه دير ياسين بعد ثلاثة أيام.. قُتل فيها ثلث سكان القرية.. وهرب الباقيين إلى القرى المجاورة.. وهرب سكان القرى المجاورة لما رأوهم إلى القرى المجاورة.. وهرب أولئك بدورهم.. وأصبح الفلسطينيون يهربون من

قراهم خوفاً من العصابات اليهودية.. وترددت صرخة "ماستيم" الشيطانية في الأجواء.

كان مشهد الأهالي الفلسطينيين محزناً جداً وهم يفادرون قراهم في طابور طويل بعضهم مشياً على الأقدام يحملون متاعهم وبعضهم على شاحنات يحملون فوقها أثاثهم وأحفتهم وأمتعتهم.. يسافرون إلى حيث لا يدرون لأنفسهم مسكناً ولا مأوى.. والأكثر حزناً أن ترى "ماستيم" وجمجمته الشيطانية الساخرة تنظر إلى هذا كله.. وأظفاره الطويلة تتحرك بالتالي تعبيراً عن السعادة الجمة.. فهو لاء يتركون ديارهم وأرضهم ليعيش فيها يهود.. يهود قدموا من كافة أنحاء العالم.. يهود طردهم كل العالم.. وحكم على هؤلاء الفلسطينيين وحدهم أن يدفعوا الثمن.

بدأ اليهود ينظرون إلى يافا.. ويعدون العدة لاقتحامها وطردها أهلها كما فعلوا مع بقية المدن.. وكان من قواد جيش الهاجانا رجل يدعى "موشي ديان".. رجل ذو عصابة سوداء على عينه اليسرى.. وكان يستعد لاقتحام يافا بخطة متميزة.. لكن "ماستيم" ترك هذه الاستعدادات وطار ليشاهد أمراً لفت نظره.. كانت هناك فتاة فاتنة تجاهد لعبور الأسلاك الشائكة التي تفصل بين المنطقتين العربية والصهيونية.. كان "ماستيم" يتابع تلك الفتاة وهي خارجة من بيتها في مستعمرة بيتام جنوبي يافا.. حيث توجهت متسللة بحرص على ألا يراها أحد حتى وصلت إلى الأسلاك الشائكة الموضوعية بطريقة معقدة.. وقد تمكنت بعد عناء من اجتياز الأسلاك بعد أن جرحت ساقها جرحاً بليغاً جداً.. وجرت نفسها جرحاً داخلة إلى يافا في وقت يسبق أذان الفجر بحوالي ساعة.. الغريب أنها كانت تمشي وهي تعرف تحديداً إلى أين تذهب.. ولم يمض وقت طويل إلا وهي واقفة أمام أحد المنازل تدق بابها وساقها تنزف من تحتها ولم تعد قادة على حملها.

ما لفت نظر "ماستيم" هو أن هذه الفتاة الفاتنة كانت هي "راشيل ديان" ابنة أخ "موشي ديان".. وبدأت ملامح جمجمته الشيطانية متوجسة شراً.. فُتح باب المنزل

الذي كانت تقف أمامه "راشيل".. لتبدو من داخل المنزل فتاة جميلة أخرى.. ما إن رأت "راشيل" حتى انكبت عليها تحتضنها وتصرخ فيها سائلة عما حلَّ بها.. ثم أدخلتها.. كانت تلك الفتاة الأخرى فتاة فلسطينية تدعى "مهية خورشيد".. إحدى الناشطات السياسيات الفلسطينيات.. وكانت قد انعقدت بينها وبين "راشيل" صداقة عجيبة.. فبرغم أن "راشيل" يهودية إلا أنها ترفض الصهيونية رفضاً قاطعاً وترفض توجهاتها.. ويبدو أن قُرب "راشيل" من "موشي ديان" قد جعلها تطلع على خطة الهاجانا لاقتحام يافا.. ويبدو أنها خاطرت بنفسها وجاءت إلى "مهية" لتحذرها من هذا الاقتحام حتى يأخذ أهل يافا حذرهم.

كانت ملامح "ماستيم" تبدو غاضبة جداً.. كان يعتبر ما تفعله "راشيل" هو خيانة.. لكن ما فاجأه حقاً هو ما حدث في اليوم التالي.. أثناء اقتحام العصابات الإسرائيلية ليافا.. نظر "ماستيم" غير مصدق ما يراه بمحجري عينيه العظمتين.. لقد كانت هناك فرقة مسلحة.. فرقة مسلحة نسائية فلسطينية.. فرقة نسائية ترأسها "مهية خورشيد".. التي بدت وكأنها فارسة أسطورية وهي تحمل مدفعاً رشاشاً وتضع على رأسها حجاباً وترتدي ملابس شبيهة عسكرية.. ووراءها فرقة نسائية مسلحة.

نسى "ماستيم" ما يحدث في يافا وظل يتابع تلك الفرقة التي كانت تحارب الهاجانا فعلياً بكل قوتها.. لكنه أسقط في يده لما رأى "راشيل ديان" تخرج من المنزل ببندقية في يدها وتنقذ إحدى المسلحات من الفرقة في اللحظة الأخيرة.. وأصبحت "راشيل" ومهية في الميدان كتفاً إلى كتف.. إحداهما مسلمة.. والأخرى يهودية.. يحاربان قوات صهيون.. ويبدو أنهما قد أبديا بسالة في هذه الحرب أبقيتهما على قيد الحياة حتى بعد أن تم احتلال يافا وطردها أهلها.. كانت "راشيل" تخرج من البلدة إلى جانب صاحبها "مهية" وقد وضعت "راشيل حجاباً على رأسها كنوع من التكر حتى لا يعرفها قومها.

وجاء اليوم الذي بدأت القوات البريطانية تخرج في طابور عسكري طويل من فلسطين.. يشابه ذلك الطابور الذي دخلوا به إلى فلسطين أول مرة.. كانوا خارجين منها بعد أن وضعوا شعباً مكان شعب.. وأعزوا شعباً وأذلوا شعباً.. وبعد خروجهم بدقائق فقط كان هناك احتفال صهيوني ما.. وصعد "ديفيد بن غوريون" على المنصة وأخذ يقرأ على الناس بيان قيام دولة إسرائيل.. أو كما يسمونه بيان الاستقلال.. والعجيب أنه لم يكن لهم وجود أصلاً في الدولة حتى يستقلوا عنها.. كان "ماستيم" طائراً فوق رأس "بن غوريون" تماماً.. وكان يبدو واقفاً في الهواء بشموخ مربعا يديه في مظهر قوي وعباءته تظل على كل حاضري الحفل.. وكان يستمع إلى بيان "بن غوريون" وهو يقول:

"لقد نشأ الشعب اليهودي في أرض فلسطين.. وفيها أقام دولة ذات سيادة.. وقد تم إجلأؤه عنها في ذات يوم مشؤوم.. لكن الشعب اليهودي لم ينس وهو في مهاجرة أمل العودة إلى بلاده.. ولهذا بدأ الشعب اليهودي في العودة بالآلاف المؤلفة إلى أرض الميعاد.. أرضه التي طرد منها قديماً.. وها نحن الآن.. تلبية لنداء المرحوم العظيم تيودور هرتزل صاحب فكرة الدولة اليهودية.. نقف هنا ونعلن استقلالنا بدولة قائمة بذاتها ولغتها وجيشها"

"إن محرقة هتلر النازية التي حلت باليهود في الفترة الأخيرة والتي راح ضحيتها الملايين من يهود أوروبا قد أثبتت للعالم ضرورة حل مشكلة الشعب اليهودي المحروم من الوطن والاستقلال.. ولقد أعلنت الأمم المتحدة قرار إنشاء دولة مستقلة لليهود على هذه الأرض.. واليوم نحن نعلن انتهاء الانتداب البريطاني وبحكم حقنا الطبيعي والتاريخي فنحن اليوم نعلن عن قيام دولة يهودية في أرض إسرائيل.. وأن هذه الدولة اسمها إسرائيل.. وإنا نناشد الأمم المتحدة قبول دولة إسرائيل في أسرة الأمم المتحدة"

تمت
